ألوهية الروح القدس

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٥

www.coptology.org

أُلوهية الروح القدس[١]

يمكننا أن نقسم الحديث عن لاهوت الروح القدس في تاريخ الكنيسة إلى أربعة مراحل أساسية:

١– المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل ظهور البدع.

٢– المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد ظهور الآريوسية.

٣– المرحلة الثالثة: مرحلة المجمع المسكوني الثاني، والقرار الذي اتخذه عام ٣٨١ عن الروح القدس.

٤– المرحلة الرابعة: ما استقر في التراث الكنسي والحياة النسكية عن الروح القدس.

هذه المراحل –طبعا– ليست مقسَّمة تاريخيا، وإنما من الأفضل أن نقسمها موضوعيا لكي نستطيع أن نحصر كلامنا ويكون واضحا.

في المرحلة الأولى كان التراث الكنسي والتسليم الرسولي في القرون الثلاثة الأولى، يتكلم عن الروح القدس، روح الله، أحد أقانيم الثالوث. وكان واضحا تماما عند آباء الكنيسة قبل مجمع نيقية أن الروح القدس هو أحد أقانيم الثالوث.

فبدون الكلام عن الروح القدس كأحد أقانيم الثالوث لا يكون عندنا ثالوث. كانت طريقة آباء الكنيسة في الكلام عن أُلوهية الروح القدس في عصر ما قبل نيقية طريقة بسيطة، فقد جمع الآباء النصوص الخاصة بالروح القدس من العهد القديم والعهد الجديد. وكان أبرز من كتب عن الروح القدس قبل نيقية هم ثلاثة

(١) نص محاضرة ألقاها الدكتور جورج في المؤتمر العاشر للتكريس البتولي ١٩٨١.

معلمين، هم: العلامة ترتليانوس، والعلامة أوريجينوس، وهيبوليتوس الروماني.

ونحن لن نتكلم الآن عن الثلاثة، إنما يهمنا فقط نقطتين أساسيتين في كتابات الآباء في عصر ما قبل نيقية:

النقطة الأولى: هي عمل الروح القدس في المعمودية. واعتُبِرت هذه النقطة إحدى الدعامات الأساسية للكلام عن لاهوت الروح القدس. وفي عصر ما بعد نيقية نجد هذه النقطة واضحة عند القديس أثناسيوس في رسائله إلى سرابيون عن الروح القدس[١]، وعند القديس باسيليوس في كتابه عن الروح القدس[٢]. وعند ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية في القرن الرابع[٣]. وعند كل الآباء الذين كتبوا بعد المجمع المسكوني الأول والمجمع الثاني. بل كانت هذه النقطة تُعد دعامةً في اللاهوت المسيحي ككل. وإن كانت البرهنة على أُلوهية الروح القدس من نصوص الكتاب المقدس وحده عملية صعبة، لماذا؟ لأننا في الوقت الذي نقدّم فيه نصوصا من الكتاب المقدس لهذا الغرض، فإن الهراطقة والمبتدعين يخرجوَن بنصوصٍ من الكتاب المقدس أيضاً، ويفسرونها على هواهم.

وأذكُر جيدًا أنه حينما بدأت في ترجمة كتاب الروح القدس للقديس

---

(١) راجع "الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون"، ترجمها عن اليونانية وأعد المقدمة والملاحظات دكتور موريس تواضروس، والدكتور نصحي عبد الشهيد، مركز دراسات الآباء، سلسلة نصوص الآباء ٣١، القاهرة، مايو ١٩٩٤. وقد صدرت هذه الترجمة فيما بعد في عدة طبعات لاحقة بمعرفة المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة. ومن الجدير بالذكر أن الدكتور جورج بباوي قام بترجمة نص هذه الرسائل أثناء تدريسه بالكلية الإكليريكية بالقاهرة وطنطا، وهي قيد الإعداد للنشر.

(٢) راجع "القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية، الروح القدس"، تعريب وتقديم د. جورج حبيب بباوي، مع مقدمة تاريخية بقلم نيافة الأنبا يوأنس مطران الغربية المتنيح، الطبعة الثانية، جذور للنشر، القاهرة ٢٠١٤. منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية www.coptology.com

(٣) راجع "الروح القدس" للمعلم اللاهوتي السكندري ديديموس الضرير، ترجمه وقدم له: أمجد رفعت رشدي، مدرسة الإسكندرية، القاهرة، الطبعة الأولى، سبتمبر ٢٠١٣.

باسـيليوس أنني وجدت أن الفصـول العشـرة الأولى من الكتاب تدور حول نقطة واحدة في غاية الخطورة وهي: استخدام حروف الجر في رسائل بولس الرسول. فعند محاربي الروح القدس عندما يقال "في الروح" أو "بالروح"، فإن مجرد الاسـتخدام اللغوي لحرف الجر "في"، أو "بـ" معناه أنك تعتبر الروح القدس مجرد واسطة أو أداة يستخدمها الله. إذن، فهو بحسب تفسيرهم هذا أقلٌّ من الآب. وهكذا يظهر هنا أن طريقة البرهنة على أُلوهية الروح القدس من نصوص الكتاب، متعبة جدًا، وأغلب الظن، فإنها، أي هذه الطريقة لا توصل في النهاية إلى إيمان سليم.

ويظهر من رسـائل أثناسـيوس أن الهجوم علىً الروح القدس عند جماعة التروبيك، أي المحرفين ، مصدره الأساسي ناتج من وجود بعض نصوص يستعمل فيها كلمة "روح" في الكتاب المقدس بدون أداة التعريف (الـ). وهكذا، في تفسيرهم يكون الروح ليس هو الله بسـبب عدم وجود أداة التعريف، وإنما هو أحد أرواح الملائكة. والذي يقرأ هذا الكلام، لا بد وأن يتذكر الكلام الذي يقال في زماننا في القرن العشرين على أداة التعريف (ال)[١].

ففي الرسائل إلى سرابيون عن الروح القدس، اهتم القديس أثناسيوس بأن يجمع النصوص عن الروح من الكتاب المقدس، وذلك في الفقرات من ٨ – ١٤ من الرسـالة الأولى. وهو يثبت فيها أن اسـم "الروح القدس" لم يأت ولا مرة واحدة في الكتاب المقدس بدون تعريف، سـواء أكان ذلك بأداة التعريف، أو بالتعريف بالإضـافة: "روح الرب" أو "بالروح القدس"، أو "روح الله". لكن إذا جاءت كلمة

---

(١) راجع في ذلك ردا تفصيليًّا د. جورج حبيب بباوي "أُقنومية الروح القدس بين الإنكار وفساد الاستدلال، أداة التعريف (أل) وأثرها على التسليم الرسولي الخاص بالروح القدس، دراسة في الكتاب المقدس والآباء والطقس"، جذور للترجمة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

"روح" فقط بدون أداة تعريف، وبدون التعريف بالإضافة للرب، أو الله، أو القَدس، فلا يكون الكلام عن الروح القدس.

وفي الكلام مع شهود يهوه الذين ورثوا البدع القديمة، لا يمكن إثبات أُلوهية الروح القدس من الكتاب المقدس مع إنسان يغيّر معنى النص. وفي نقاش مع أحد شهود يهوه قدَّمت النص المشهور عند آباء الكنيسَة في إثبات أن الروح القدس هو الله، وهو ما قاله بطرس في سفر الأعمال: "ما بالكم اتفقتما على تجربة روح الرب"، "أنت لم تكذب على الناس بل على الله"، "يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس" (أع ٥: ١-٤)، فردَّ الشخص الذي من شهود يهوه قائلاً إنه لا يقصد بهذا أن الروح القدس هو الله، لأن أي خطية يرتكبها الإنسان هي خطية موجهة لله، وهما (أي حنانيا وسفيرة) أخطآ ضد الله، وهما يجربان الروح القدس كما يجرب أيُّ إنسان إنساناً آخر، وبهذا قَلَبَ المعنى وغيَّره. وفي مرة أخرى كان الحديث معه عن اعترافً توما بلاهوت المسيح بقوله "ربي وإلهي"، فعلَّق قائلاً: إن كلام توما لم يكن موجَّها للمسيح، بل من خوفه ودهشته قال يا ربي وإلهي، كما تقول أنت: يا ربي أو يا إلهي بصيغة التعجب، وبهذه الطريقة لا تكون هناك قيمة للنصوص التي تتكلم عن الله.

ونحن نعرف أن الكلام ع ن أُلوهية المسيح أوضح بكثير عن الكلام عن أُلوهية الروح القدس في الإنجيل، ومع هذا، فنحن نعرف ما فعله آريوس بالنصوص الخاصة بلاهوت الابن. والإنسان يشعر بأنه لا يستطيع أن يغيّر في معناها بسبب وضوحها التام. ولكن ما يجعلنا نحن غير قادرين أن نغيّر في مَعناها هو أن إيماننا سليم، وليس النص وحده بقادرٍ أن يمنعنا من تغيير المعنى. ولذلك، فحتى الآباء قبل نيقية لم يهتموا كثيرا بجمع نصوص الكتاب المقدس. هناك قطعة جميلة جدا لهيبوليتس

يقول فيها: "إن المسيحيين عندما يقرأون في الأصحاح الأول من سفر التكوين أن روح الرب كان يرفُّ على وجه المياه، يعرفون أن المقصود هنا هو الروح القدس، ولكن المسيحي يعرف أن الروح يرفُّ على وجه المياه، ليس من سفر التكوين، وإنما من اختبار المعمودية. لأن الذي يمنح التجديد هو الروح القدس الذي كان يرفُّ على وجه المياه في الخلقة الأولى".

وهذا معناه أن النقطة التي تجعلني أُفسّر الكتاب تفسيرًا صحيحًا هي صحة الإيمان. لكن صحة الإيمان ليست عملية عَقلية، والذي دخل منكم في نقاش مع أحد شهود يهوه يعرف أن كل الكلام العقلاني يوصّل إلى طريق مسدود في النهاية، وإنما صحة الإيمان مرتبطة باختبار المعمودية. المعمودَية التي تعطِّي التبني لا يمكن أن تكون إلَّا عملًا للثالوث الآب والابن والروح القدس.

النقطة الثانية: عند الآباء قبل نيقية هي أنهم في جَمعهم لكل النصوص عن الروح، كانوا يثبتون بها نقطة جوهرية في الحياة المسيحية، وهي أن الإنسان لا يستطيع أن يتعرَّف على الله بدون عمل الروح القدس. وهنا يوجد عنصران مرتبطان ببعضهما ارتباطًا كبيرا جدًا، وهما أن الله قد أعلن عن نفسه، وهذا الإعلان تمَّ بالكلمة، ثم بالروح القدس. وهو إعلان بمجيء الابن في الجسد، وأكمله بحلول الروح القدس يوم الخمسين. وبالتالي فإن معرفة الإنسان بالله لا تنبع من عقل الإنسان أو قدراته العقلية.

إن كلمة "معرفة" من الكلمات التي تحتاج إلى حديث طويل جدًا في زمننا هذا، لماذا؟ أولًا لأن كلمة "معرفة" تأخذ أكثر من معنى، أمَّاً في الكتاب المقدس، فالمعرفة تعني اختبار، ولا تعني معلومات. لأن المعلومات لا تُحدث أي تغيير في كيان الإنسان.

فهناك فرقٌ كبيرٌ جداً بين إنسان يقرأ ويعرف شيئاً عن العلوم والفنون والآداب (مما قد يؤدي إلى إصلاحٍ في خَياله وفكره فقط، ولكن دون أن يحدث تغيير في كيانه).

الكتاب المقدس والآباء كلاهما لهما اتجاه واحدٌ في استخدام كلمة "معرفة"، فهم -أي كتبة الوحي والآباء- يقصدون بكلمة "معرفة" أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله، وحينما يعرف الله، فإن معرفته هذه تكون عبارة عن إعلان يتلقاه الإنسان من الله، ولذلك فحينما يعرف الإنسان هذه المعرفة يحدث تغيير في كيانه من الداخل، فيؤدي هذا -حسب تعبير القديس أثناسيوس- إلى انعطاف الإنسان ناحية الله أكثر. وهذا الانعطاف يرجع إلى أن الإنسان في الأصل مخلوقٌ على صورة الله ومثاله. فحينما يعرف الله تكون هذه المعرفة مرتبطة بوضع الإنسان في الله كصورته ومثاله في أي رؤية أو معرفة.

ولذلك يستعمل إنجيل يوحنا كلمة "يرى" وكلمة "يعرف" بمعنى واحد، وأيضاً كلمة "يعرف"، و"يسمع" و"يحب" و"يؤمن" أيضاً، هذه الأفعال كلها عند يوحنا بمعنى واحد. فهنا، ما تلقَّاه الإنسان من معرفة يغيِّر في كيانه. لأن هذه المعرفة تكشف له الله، أي تجعله يعرف الله، فأن يبدأ الإنسانَ يبحث كيف يعود إلى الله، فهي المعرفة التي تعيد الإنسان إلى الله، وهذا الأمر مفقود تماما في فكرنا اللاهوتي المعاصر عند كلامنا عن دور الكلمة -كلمة الله في الكتاب المقدس- ودور التعليم في إنارة فكر الإنسان الروحي.

فالآباء كانوا يقولون نحن لا نستطيع أن نعرف الله إلَّا بالروح القدس، على اعتبار أن كل الإعلانات الإلهية التي حدثت في العهد القديم، ثم إعلان الله الكامل في العهد الجديد في ابنه المسيح المتجسد، كلُّ هذه الإعلانات لا يستطيع الإنسان

أن يعرفها معرفة يقينية -أي كاختبار يتذوَّقه الإنسان- إلّا بواسطة الإعلان الأخير، وهو انسكاب الروح القدس على الكَنيسة في يوم الخمسين.

ومن هنا يتبين أن الذي يعرِفنا إلى الله، لا يمكن أن يكون إلّا الله. وهذه النقطة جاءت عند أوريجينوس وأكليمنضس وترتليان، وهيبوليتوس، وجاءت أيضا عند إيرينيئوس.

لا أُريد أن أُضيع وقتكم في النصوص الخاصة بأُلوهية الروح القدس -في الكتاب المقدس- فنحن نعرفها، والذي يريد أن يقرأها ويجمعها ويدرسها، يمكن أن يرجع إلى المجلد الثاني لعلم اللاهوت للقمص ميخائيل مينا، أو يرجع إلى فهرس الكتاب المقدس لجمع الآيات عن الروح القدس.

لكن النقطة التي أعود وأكررها هي أن الموضوع ليس موضوع جمع نصوص الكتاب المقدس، بل ما هي الهرطقة، ولماذا استطاعت أن تزعج الكنيسة وتقلق سلامها؟

الهرطقات ترتكز على أساس فكري واحد، وهو العودة إلى التراث الوثني غير المسيحي. وكلمة "هرطقة" باليونانية معناها "يختار". فما الذي يميز المسيحية عن الوثنية؟ الوثنية في مراحلها الأولى لم تكن عبادة أصنام، فعندنا كَتاب عن الوثنية مكتوب قبل المسيحية بحوالي ٣٠٠ سنة اسمه "أسفار هرماس الحكيم" يظهر منه أن العبادة الوثنية فيها كلام عن التوحيد، عن الله الواحد في منتهى الجمال – إذن، فما هي النقطة الأساسية التي تفرق بين المسيحية والوثنية؟ وهي نقطة قالها الآباء ونحن لم ننتبه إليها:

الوثنية هي عبارة عن تديُّن طبيعي، فيه يستخدم الإنسان قدراته الطبيعية في الوصول إلى الله. هي حركة بحث عن الله، ولذلك لا تخلو من بعض العناصر

الصحيحة والجيدة وليست كلها رديئة، لأنها تمثل رغبة الإنسان في البحث عن الله. فهي تديُّن مبني على قدرات الإنسان العقلية، فلماذا ترفض المسيحية هذا؟ للأسباب التالية:

١– إن الإنسان بقدرته الطبيعية لا يستطيع أن يصل إلى الله، ذلك لأن الوصول إلى الله غير ممكن بقدرات الإنسان الذاتية، ولكن بإعلان الله ذاته للإنسان. وطالما أن الله لا يعطي، فالإنسان –مهما عمل– لا يستطيع أن يأخذ شيئا، وهنا يكون الأمر بمثابة عراك ليس مع الطبيعة، إنما مع الله خالق كل الأشياء. فإذا لم يتنازل الإله ليصل إلى الإنسان، فمن الواضح أن الإنسان لا يقدر أن يصل إلى شيء.

٢– إن الكيان الإنساني يحتاج إلى تجديد حتى يستطيع الإنسان فعلًا أن يتقبَّل العطاء الإلهي فعلًا. والعطاء الإلهي لا يعطى لطبيعة إنسانية ميتة تحتاج إلى تجديد. هذا ما قاله المسيح له المجد: لا توضع الخمر الجديدة في الزقاق العتيقة، والقماش الجديد لا يصلُح رقعةً لثوب عتيق، ويحدث في النهاية صراعٌ يؤدي إلى أن الزقاق يتلف والقطعة الجديدة تمزق باقي الثوب.

٣– إن الإنسان بقدرته الطبيعية الصالحة لا يستطيع أن يحيا في شركة مع الله إلى الأبد، أي الحياة الأبدية، لأنه ما هي القوة الطبيعية في الكيان الإنساني التي تمكّن الإنسان من أن يحيا في شركة مع الله؟ المسيحية تقول إن هذه القوة تأتي بعطية من الله. لذلك، فمن الكتب الجيدة التي يجب أن نخصص لها اهتماما كبيرا جدا كتابي: "الرسالة إلى الوثنيين"، "تجسد الكلمة" للقديسَ أثناسيوس. ومن الضروري دراسة هذين الكتابين جيدا.

فالإنسان، بل والكون كله لا يملك في ذاته عناصر البقاء. ولكن الوثنية

تقول بعكس هذا، أي أن الإنسـان والكون يخضعان لقانون طبيعي مُحكَم يجعل كل شيء يسير بقوة القانون — فالقانون الطبيعي يضمن للكون الاستمرار.

أمَّا المسـيحية فتقول إن الله خلق الكون من العدم، والإنسـان أيضـا لو لم يحفظه الله "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣)، ولو لم يمسك الله الكون ويحفظه ويحمله، فالكون في النهاية يرجع إلى العدم. والذي يمنع الكون من الانهيار والوصـول إلى العدم هو الله، وهكذا الإنسـان أيضـا. فالخلود هو منحة من الله. الإنسـان خُلِقَ من العدمِ، والخلقُ مِن العدم في حد ذاته تأكيدٌ على أن الإنسـان بدون الله = عَدَم. وإذا فقد الإنسـان الشـركة مع الله، فيمكن أن يصـل إلى العدم، ولكن في الحقيقة إن الله لم يسمح بأن ينتهي الإنسان إلى العدم.

يقول القديس أثناسـيوس إن الله لم يسـمح للإنسـان أن ينتهي إلى العدم لسببين (راجع تجسد الكلمة، ف ٦: ٣ - ٩):

أ– إن وصـول الإنسـان إلى العدم يثبت إهمال الله وعجزه، وأن الله غير صالح.

ب– إن الله لو ترك الطبيعة الإنسـانية تسـير إلى العدم، فهذا معناه أنه كان أولى بالله أن لا يخلق الإنسـان من أنه يخلقه، ثم يراه يضـمحل أمامه ولا يتدخل لإنقاذه. إذن، تكون المسألة بذلك في يد الشيطان.

هذا الكلام، الذي قيل ضد الوثنية في القرن الثالث والرابع، لا بد من إعادة طرحه في العصر الحديث؛ لأن نقطة الصدام بين الهرطقات وبين الكنيسة المسيحية هي استخدام التراث الوثني في شرح العقيدة.

حينما تقرأ عن الآريوسية تكتشف أن المشكلة عند آريوس هي أنه غير قادر على فهم مضمون النعمة، أي معنى النعمة في المسيحية، فحقيقة المشكلة ليست في

أن الابن مولود من الآب، وكيف يولد من الآب، لا ليس هذا هو الموضوع الحقيقي، بل الموضوع الحقيقي هو رفضه اعتماد الإنسان على الله الذي فيه رفض الخضوع للقوة الإلهية.

وهناك نقطة قالها القديس أثناسيوس في رده على الآريوسية: وهي أن كل الهرطقات في تاريخ الكنيسة كانت تتستر في ستار ديني، ولكن لا توجد هرطقة كشفت عن وجهها وأعلنت عن رغبتها في العودة إلى الوثنية، مثلما هو ظاهر في الهرطقة الآريوسية بشكل واضح، لأن آريوس يؤمن بأن الثقافة والفلسفة تستطيع أن تعين الإنسان لكي يصل إلى الله، فهو لا يريد أن الله يتدخل في حياة الإنسان.

وهناك هرطقة قديمة ظهرت في المسيحية في الكنيسة الأولى اسمها الغنوسية، والبعض كانوا يظنون أنها انتهت، ولكن الذي يقرأ المقالات الأربعة ضد آريوس التي كتبها القديس أثناسيوس، يجد أنه يتَّهم آريوس بالعودة إلى بدعة فالنتينوس الغنوسي. والغنوسي يؤمن بأن الإنسان يستطيع أن يخلُص بالمعرفة، وأنه بواسطة الأسرار التي يعرفها عن الله، يجعل كل شيء تحت سيطرة الإرادة الإنسانية مما يمكّن الإنسان – باستخدامها الجيد– أن يصل إلى الله، وهذا هو ما يشبه السحر.

الغنوسية هي مثل السحر عندنا في مصر، فإنهم بواسطة التعزيم يظنون أنهم يصلون في النهاية إلى النتيجة التي يطلبونها مثل تغيير الرصاص إلى ذهب، أو التأثير على عواطف امرأة لكي تحب رجلاً معينا، أو معرفة مكان شيء مفقود، أو التنبؤ بالمستقبل كما يدَّعون، أو غيره من الأمور.

هنا مفهوم "النعمة" يتعارض تماما مع الثقافة الوثنية والأدب الوثني اليوناني، كما يتعارض مع فكرة الخلاص بالمعرفة.

ولذلك، نجد أن الآباء في كتاباتهم كانوا كَمَن يُحارِب على عدة جبهات.

فنحن مثلاً نركّز انتباهنا على جبهة نصوص الكتاب المقدس فقط، وهذه نقطة مهمة جدا بسبب كَثرة التساؤلات عن معنى النصوص الكتابية. ولكن هناك جبهة أخرى، وهي جبهة مدلول النعمة أو الخلاص في المسيحية. ومن هذا المدخل -أي مدخل الخلاص- دخل الآباء لفهم النصوص في الكتاب المقدس وليس العكس. أي أن الخلاص هو القاعدة الأساسية لشرح الكتاب المقدس.

والجبهة الثالثة هي علاقة الإنسان كصورة بالأصل الذي هو الله. هذه العلاقة هي علاقة كيانية وليست علاقة عقلية بالمعنى الفلسفي – انما هي علاقة عقلية بالمعنى المسيحي: بمعنى أن ما يدخل في عقل الإنسان هو تذوُّق واختبار يؤدي في النهاية إلى تغيير الكيان الإنساني.

الجبهة الرابعة؛ هي جبهة الأسرار الكنسية.

وبالحقيقة يمكن أن نرى هذه الجبهات هي في النهاية جبهة واحدة تحت تعليم المسيحية عن الخلاص. المهم أننا لا نريد أن نترك هذه النقطة تضيع وسط المشكلات الكثيرة.

النقطة الأساسية التي يجب أن تكون واضحة في تفسيرنا هي أن الآباء رفضوا الهرطقات؛ لأن الهرطقات تقضي في النهاية على معنى **النعمة الإلهية**؛ وبذلك يصير المسيح -بحسب الهرطقات- حامل رسالة أخلاقية فقط، بينما يعتبر الآباء أن المسيح حَمل للإنسانية الحياة الأبدية والخلاص والتبني.

إذن، هناك فرق كبير بين شرح الآباء والهرطقات.

الآباء في شرحهم للإيمان ولإثبات عقيدة الثالوث يعتبرون أن أي مساس بعقيدة الثالوث يؤثر على كل العقائد الأخرى. ونحن نحتاج إلى هذه النقطة في العصر الحديث، أي إلى أن يكون لدينا النظرة الشمولية الكاملة لكل العقائد.

فمثلًا أنا لا أستطيع أن أتكلم عن الإفخارستيا إلّا إذا ضبطت كلامي عن اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، ولا أستطيع أن أتكلم عن مفهوم اتحاد اللاهوت بالناسوت إلّا إذا تكلمت بصورة مضبوطة عن التجسد، ولا أستطيع أن أتكلم عن التجسد إلّا إذا فهمت حقيقة سقوط الإنسان، وعقيدة الخلق جيدًا. ولا أستطيع أن أتكلم عن عقيدة الخلق إلّا إذا تكلمت عن الثالوث. إذن فهي عبارة عن دورة مثل الدورة الدموية.

وللتدليل على ذلك، نأخذ جزءا بسيطًا من رد أثناسيوس على الآريوسية، إذ يقول: إذا اعتبرنا أن الابن مخلوقٌ، فلا يكون هناك معمودية؛ لأنه إن كان الابن مخلوقًا فلا نستطيع أن نضعه مع الآب والروح القدس في التعميد إطلاقًا، والمعمودية بحسب أمر الرب هي باسم الآب والابن والروح القدس. وفي هذه الحالة يكون الابن هو نفسه محتاجا إلى التعميد ولا يكون في استطاعته أن يعطي التبني إذ يكون هو نفسه في حاجة إلى التبني.

ولو كان الابن مخلوقًا، فلا يكون هناك روح قدس، لأن الذي يعطي الروح القدس للكنيسة هو الابن. وإن كان الروح القدس هو روح الله، فكيف يستطيع مخلوق (لو كان الابن مخلوقًا) أن يسكب روح الله على الكنيسة؟

ولو كان الابن مخلوقًا، فلا تكون هناك مسيحية بالمرة، بل نظل نعيش في إطار العهد القديم ولا يكون هناك فرق بين المسيح وموسى وحزقيال وإشعياء وباقي الأنبياء.

ولو كان الابن مخلوقًا، فلا يكون قد حدث خلاص حقيقي للطبيعة البشرية من براثن الموت والفساد.

وطبعا، حينما تكون البراهين بهذه الصور، فمن الواضح أن الكلام هنا ليس

منصبًّا على نصوص الكتاب المقدس، وإنما على ما يحدث في الكيان الإنساني من تغيير. ولذلك، فحينما جاء الجيل الذي تلا الآريوسيين الأُول، فانهم تركوا موضوع الابن وأمسكوا في موضوع الروح القدس.

ولأن الكلام طبعا منطقي، فقد أمسك الآباء بالجزء الخاص بالروح القدس، وبنوا براهينهم على النقطة التالية:

لو أن الروح القدس مخلوق، فلا أستطيع أن أعرف الله الذي أعلن عن نفسه في الابن "لأنه لا يستطيع أحد أن يسوع رب إلّا بالروح القدس". ونحن لا نقول إن المسيح ربٌّ بمجرد الاعتراف بالفم. حاشا. إنما المسيح ربٌّ لأنني تذوَّقت قوة القيامة معه في المعمودية. فلو كان الابن مخلوقًا، لا تكون هناك معمودية، ولا يوجد أيضًا تقديس. وهذا الموضوع (التقديس) يحتاج إلى حديث طويل جدًا:

ما معنى "تقديس"؟ هل معناها "بلا خطية"؟ وهل "بلا خطية" تفسّر حقيقة الكيان الإلهي؟ هناك نقطة تميز بين الفلسفة وبين اللاهوت:

في الفلسفة يمكن للإنسان أَن يبني علاقة مع الله بواسطة الصفات السلبية مثل: غير المحدود، غير المستحيل .. الخ. هذا الكلام يسمى بالصفات السلبية لكن غير ممكن للإنسان أن يبني علاقة كيانية مع الله – أي علاقة لاهوتية عن طريق الصفات السلبية.

وبالتالي، لكي أتقدس، يلزم أن يحدث "عطاء"، أي عطية التقديس. ولا يمكن أن يكون التقديس عطية، إذا كان التقديس، أي القداسة في الله عبارة عن صفة سلبية، أي لمجرد أن يكون الله "بلا خطية". أو بمنتهى البساطة، كيف يتقدس الخبز والخمر، وكيف تتقدس مياه المعمودية، وهي أصلًا عناصر طبيعية ليس فيها خطية؟ التقديس في العهدين –القديم والجديد– معناه ما ينفرد به الله ويميّزه عن

الخليقة. هذه النقطة لو أحكمناها جيدًا؛ نستطيع أن نعرف أن الصراع حول موضوع التقديس في القرنين الرابع والخامس لم يكن بسيطًا، وللتدليل على ذلك أقرأ لكم عبارات من كتاب أثناسيوس لسرابيون:

التقديس ببساطة هو أن تنتقل الطبيعة الإنسانية من الموت إلى الحياة. ما معنى الكلام الذي قيل عند القديس بولس: "الذي له وحده عدم الموت"، من هو؟ هو الله. كيف يصبح لي أيضا عدم الموت؟ ما لم أتقدس بهبة الحياة مع يسوع المسيح، كيف أتقدس؟

ولذلك، يختلف التجديد في المسيحية عن التجديد في المنهج الأخلاقي؛ منهج الهراطقة.

كيف يجدد المسيح النفس الإنسانية؟

أولًا ليس بالمعرفة العقلية كما يقول الهراطقة، وبالذات آريوس ونسطور. ولا بالكلمة كما يقول بذلك بعض المتطرفين مثل البروتستانت، **وإنما بإشراك الإنسانية في صفات الله الخاصة بالله مثل صفة الحياة الأبدية.**

النقطة الأساسية عند الآباء هي أن **التقديس هو شركة مباشرة في الحياة الإلهية لكي يصير الإنسان حقًا مثل الله.**

إن الفكر اللاهوتي في العصر الحديث يشبه إنسانًا واقفًا على يديه، أي مقلوبًا، يقول إن الهجوم على لاهوت المسيح ينحصر في اتجاهين؛ إمَّا أن تُنزل المسيح إلى مستوى البشر، وإمَّا برفع الإنسان إلى مستوى المسيح، وهذا التفكير يتجاهل أن الفرق بين التقديس وبين خطية آدم فرقٌ دقيق جدًا ورفيع وفي غاية الخطورة، وبتعبير القديس باسيليوس إن الفرق بين الملكوت والموت هو أن يضع الإنسان يده على المحراث بينما هو ينظر إلى الخلف.

إن النقطة الأساسية في فهم الخطية عند الآباء هي أن الإنسان الأول أراد أن يكون مثل الله بدون الله، وهذه عملية انحراف بسيط، ولكن الخطورة الكبيرة هي في أن الإنسان فَقَدَ أولًا معرفته لله وأصبح محصورا في ذاته، فابتعد عن مصدر الحياة وأصيب بالموت.

يقول أثناسيوس (في الفصول الثمانية الأولى من رسالته إلى الوثنيين) إن الإنسان وُهِبَ نعمة اتصال عقله بالإلهيات، وأن الله عمل له مرآةً؛ التي هي طبيعته المخلوقة علَى صورة الله، فينعكس اللوغوس على عقل الإنسان، ومن خلال اللوغوس يرى الإنسان الآب والروح القدس. ولكن النفس الإنسانية حينما أظلمت، فقدت معرفة الله، لأنها صارت منحبسة في كيانها الخاص، وبالتالي انحصر عقل الإنسان في الأمور الجسدانية وصار مشغولًا بها، وشيئًا فشيئًا اظلَم الفكر الإنساني لدرجة أن الإنسان قد توالى سقوطه وانحداره، فأصبح في النهاية يجهل الله.

ماذا فعلت المسيحية؟

لقد قالت المسيحية إن الإنسان لا بد وأن يكون على صورة الله كما خُلِق، ولكن بالله، وهذا ما قاله المسيح بمنتهى الصراحة: "ألم أقل إنكم آلهة وبنو العَلي كلكم، فإن قال آلهةَ للذين صارت إليهم كلمة الله، ولا يمكن أن ينقض المكتوب، فالذي قدَّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله؟" (يو ١٠: ٣٤ وما بعدها). [فلأي هدف جاء إلى العالم؟ لكي يجعلنا آلهةَ، ولكن بالمعنى المسيحي]. لذلك ينبغي أن نُرجع موضوع سقوط الإنسان ليكون في الوضع السليم، عندئذ يعود الفكر اللاهوتي يقَف على رجليه معتدلًا.

لأن الإنسان –في الحقيقة– يجب أن يكون مثل الله لكي يعيش إلى الأبد. ولكن من دون ذلك، أي من دون مشابهة الله، لا يستطيع الإنسان بالطبيعة

الإنسانية المخلوقة من العدم أن يحيا إلى الأبد، وهذا هو معنى قول يوحنا الرسول في الرسالة الأولى: "الحياة الأبدية التي كانت عند الآب أُظهرت لنا" ١يو ١: ٢، ٣). من هو الحياة الأبدية؟ هو المسيح.

وفي الحقيقة، النقطة التي أفسدت ذوق الكنيسة ابتداء من القرن التاسع كانت عندما بدأنا نفسر الثالوث بأنه: وجود وعقل وحياة. وقد قلنا إن شرح الأقانيم بالوجود والعقل وَالحياة، أي عبارة عن صفات في ذات الله، هو شرح غير سليم[١]. كما قلنا إن أي ارتباك في عقيدة الثالوث لا بد وأن تظهر آثاره في باقي العقائد. فاذا كان الآب هو الوجود والابن هو العقل والروح القدس هو الحياة، فبمنتهى البساطة كيف يمكنك -في ضوء هذا الشرح- أن تشرح التبني والتقديس وهبة الحياة الأبدية؟

ففي يوحنا ٣: ١٦ يقول الانجيل: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"، إذا شرحنا هذا النص حسب شرح الثالوث كصفات ذاتية، فسيكون "هكذا أحب الوجود العالم حتى بذل عقله"، فماذا تعطي لك هذه الطريقة في شرح الثالوث كمجرد صفات؟

نحن في الحقيقة يعوزنا أن نرى الابن بوصفه الحياة، وهو نفسه قال: "أنا هو الطريق والحق والحياة" يو ١٤: ٦ ولكن طبقًا لشرح الثالوث بالطريقة المشار إليها، تكون قد أبعدت الابن وجعلته فكر الآب وعقله فقط، وأخذت صفة "الحياة" وحصرتها في الروح القدس، ولما جئت إلى صفة الحياة في الروح القدس، قلت أنا لا اشترك في الروح القدس نفسه، إنما في مواهب الروح القدس فقط، وبذلك أكون قد

---

(١) راجع د. جورج حبيب بباوي، الثالوث، هل هو صفات الوجود والعقل والحياة؟ منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية www.coptology.com

شـطبت على عطية الحياة الأبدية، وبذلك يكون كل شـيء قد تبخر من بين أيدينا وأصبح المنهج الأخلاقي هو السـائد الآن، وما لم نضع الأمور في نصـابها الصـحيح برد هذا المنهج الأخلاقي إلى أصوله الأولى في مدرسة آريوس ونسطور، فلن نستطيع أن نشرح العقيدة بأمانة ودقة.

وعندما نعود إلى القرنين الرابع والخامس، نجد أن ما أزعج الآباء في الحقيقة هو ما يختص بموضـوع التقديس، وهذا الكلام موجود عند أثناسـيوس في إثباته أن الروح القدس هو الله (الرسـالة الأولى، فقرة ٢٢، ٢٣) – فالروح القدس هو روح القداسـة والتجديد، وهذه هي أحد ألقاب الروح القدس. لأن بولس كتب قائلاً: "وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسـة بالقيامة من الأموات" (رومية ١: ٤). فالذي أقام الابن هو الروح القدس – ويقول أيضـا: "بل تقدسـتم بل تبررتم باسـم الرب يسوع وبروح إلهنا" (١كو ٦: ١١).

وكلمة "تقدستم" تعني التقديس وإزالة الموت من الطبيعة الإنسانية (التقديس = إبادة الموت وتجديد الحياة والقيامة). وهذا ما نراه عندما كتب القديس بولس إلى تيطس: "عندما ظهر لطف الله مخلصنا ومحبته للبشر لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية" (تيطس ٢: ٤). إذن، فالمخلوقات تقدسـت وتجددت كما يقول الرسـول بولس بالشركة في الروح القدس: "الذين استنيروا مرة وذاقوا الموهبة السماوية وصاروا شركاء الروح القدس". في أي شيء صاروا شركاء الروح القدس؟ في التقديس.

فعندما يتحدث عن التقديس يبين هنا أن الصـفة الأقنومية للروح القدس هي التي تعطى للإنسـان. إذن، الذي لا يتقدس من غيره (وهذه هي طريقة البرهنة

الآبائية عن أُلوهية الروح القدس)، بمعنى أن الروح القدس حينما يعطي التقديس لا يعطيه من غيره، ولكنه يعطيه من ذاته، لأن "الذي لا يتقدس من غيره ولا يشترك في التقديس بل هو ينبوع التقديس وفيه تتقدس جميع المخلوقات كيف يمكن أن يكون واحدًا ضمن المخلوقات، أو ينتمي إلى من يشتركون فيه ويأخذون منه، والروح يدعى مسحةً وهو الختم (أي الختم هو الروح القدس) فحينما كتب يوحنا قائلًا: "أما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم أما أنتم فلكم مسحة من القدوس"، وكتب إشعياء أيضًا "روح الرب عليَّ لأنه مسحني". ما الفرق هنا بين المسيح والمسيحيين؟ لا يوجد. فإن كان الروح القدس هو المسحة والختم الذي به يمسح الابن ويختم كل الأشياء، فأيُّ شبهٍ أو علاقة يمكن أن تكون بين المسحة والختم من ناحية، وبين الأشياء المخلوقة التي تَسمح وتُختَم من الناحية الأخرى؟

والختم (الروح القدس) له قالب المسيح الذي يختم، فالروح حينما يقوم بتقديس الطبيعة الإنسانية يأخذ من قداسته الذاتية ويعطي. ولماذا يأخذ من قداسته الذاتية ويعطي؟ السبب هو التجسد. فإن الطبيعة الإنسانية الساقطة عندما أُتحِدَتْ بلاهوت الابن تقدَّست وأصبحت طبيعة مقدسة، وهذه هي النقطة الخاصة بوَساطة المسيح. إن المسيح هو الوسيط القدوس بسبب تقديس الطبيعة الإنسانية فيه. وبسبب حلول الروح القدس عليه هو أولًا شخصيًّا، أصبح ممكنًا لنا أن نأخذ الروح القدس منه وفيه لكي نصير على مثاله. وحينما ينقل لنا الروح القدس التقديس، فهو ينقل المسحة التي مسح بها الرب يسوع في الأردن. وهكذا يكون الكلام واضحا، فإن لم نقم بعملية الربط بين العقائد كلها عند حديثنا على أصغر موضوع في العقيدة، فإننا نبتعد عن الايمان المستقيم دون أن ننتبه.

ونختم بما سبق أن قلناه؛ إن كل ما يقال من تعاليم وعظات لا تعبّر عن روح

الإنجيل، إنما هي تستند على الخط الوثني القديم.

أما الخط الثاني فهو التنازل الإلهي ودخول الله في الكيان الإنســـاني وذلك بالتجسد وفي يوم الخمسين لتغيير الإنسان وتجديده.

+ + +